آفاق الحضارة الاسلامية، اكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
السنة الثالثة عشرة، العدد الثانی، خريف و شتاء ١٤٣١هـ.ق، صص ٨١ ـ ٩٥

المطابقة بين الضمير ومرجعه فی القرآن الكريم

الدكتورة مهين حاجی‌زاده *

المستخلص

اللغة نظام، و لكل نظام قواعد تحكم بنية مفرداته. قواعد اللغة العربية تقوم على الإعراب الذی يبين مواقع الكلمات فی جملها تبعاً للمعنى الذی تمثله فی تركيبها. و بجانب الإعراب هناک قواعد أساسية أخرى تستعمل كثيراً فی الكتابة من أهمها المطابقة و هی اشتراک لفظين فی بعض السمات. فالمطابقة تكون فی كلمات لا يتمثل فيها الإعراب أصالة، و إنما تطابق كلمات أخرى ذات موقع إعرابی فی الجملة. و المطابقة قد تكون فی أمر واحد كالمطابقة فی الإعراب، وكمطابقة المعطوف للمعطوف عليه و قد تكون فی أكثرمن أمر، كمطابقة الصفة لموصوفها فی الإعراب و النوع و العدد. و قد تكون المطابقة فی أمرين: العدد و النوع. كمطابقة الخبر للمبتدأ. و من أكثر القواعد فی الاستخدام اللغوی مطابقة الضمير للاسم الذی يعود عليه.

الأصل فی الضمير أن يطابق مرجعه فی العدد و فی الجنس. ولكن يوجد فی القرآن الكريم ضمائر كثيرة يُزْعَمُ أنها خارجة عن القاعدة النحوية و ظاهرها المخالفة بين الضمير و مرجعه فی العدد و الجنس.

تناولت فی هذا المقال قواعد مطابقة الضمير لمرجعه و ذكرت أمثلة المطابقة فی القرآن الكريم، ثم ذكرت الآيات التی ظاهرها المخالفة، و بيّنت آراء العلماء فيها مع ترجيح بعض الأقوال على بعض، و سبب ذلک الترجيح.

الكلمات الرئيسة: المطابقة، الضمير، مرجع الضمير، القرآن الكريم، آراء العلماء.

المقدمة

يقصد بلفظ المطابقة فی اللغة، التماثل والتساوی، جاء فی اللسان: "وتطابقَ الشيئان تساويا، والمطابقةُ الموافقة، والتطابقُ الاتفاق، وطابقتُ بين الشيئين إذا جعلتُهُما على حذوٍ واحدٍ وألزقتُهُما،

* استاذة مساعدة بجامعة آذربيجان لإعداد المعلمين hajizadeh_tma@yahoo.com
تاريخ الوصول : ٨٩/٧/٤، تاريخ القبول : ٨٩/٨/١٩

Archive of SID
www.SID.ir

وهذا الشئْ وِفقَ هذا ووفاقهُ وطِباقهُ وطابقهُ وطبِقَهُ وطَبيقَهُ ومُطبقهُ وقالبهُ، بمعنىً واحدٍ "(ابن منظور، محمد، دت: ١٠ / ٢٠٩ـ٢١٠، مادة طبق)، وجاء فى تاج العروس: "والمطابقةُ الموافقةُ، وقد طابقهُ مطابقةً وطباقا ... "الزبيدى، محمد، د.ت: ٤١٧/٦، فصل الطاء مع القاف).

و على الرغم من أنَّ هذا المصطلح مستعمل متداول عند النحاة، إلا أننى لم أجد له تعريفاً يخصه، ومن خلال تتبع هذا المصطلح فى كتبهم، نستطيع أن نعّرف المطابقة بأنها: مجموعة من العناصر اللغوية التى تؤدى وظائف متماثلة أو متشابهة، أو تدل على معان نحوية، كالإعراب من رفع ونصب وجر، وكالعدد من إفراد وتثنية وجمع، وكالتعريف والتنكير، وكالجنس من تذكير وتأنيث، وكالشخص من تكلم وخطاب وغيبة وإننا نلاحظ هذه الظاهرة فى المبتدأ والخبر متمثلة فى العدد وفى الجنس وفى التعريف والتنكير، ونلاحظها فى الفعل والفاعل، وتتمثل فى العدد وفى الجنس، ونلاحظها أيضاً فى التوابع، وتتمثل فى الإعراب وفى التعريف والتنكير، وتوجد فى الضمائر متمثلة فى العدد وفى الجنس وفى الشخص، وهذه هى أهم الجوانب التركيبة التى يظهر فيها هذا المصطلح فى النحو العربى. فنجد ـ مثلاً ـ الرضى فى شرحه الكافية يقول: " فإن طابقت مفرداً جاز الأمران أى إن كانت الصفة المذكورة مطابقة للمرفوع بعدها فى الإفراد، جاز الأمران، لكونها مبتدأ وما بعدها فاعلها، ولكونها خبراً عمَّا بعدها " (الاسترآبادى، رضى الدين، د.ت: ٢٢٨/١)، ويقول أيضاً عند الحديث عن ضمير الشأن: " ويُختارُ تأنيث الضمير؛ لرجوعه إلى المؤنث، أى القصة، إذا كان فى الجملة المفسِّرة مؤنثٌ؛ لقصد المطابقة، لا لأن مفسره ذلك المؤنث كقوله تعالى: [فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ] " (م.ن: ٤٦٧/٢). وهذه إشارات صريحة لهذا المصطلح، ولا ننس أن كلام النحاة فى عدد من الأبواب النحوية، وإن لم يذكروا فيه لفظ المطابقة، فإنَّها مقصودة ضمناً، وذلك نحو حديثهم فى التوابع، يقول سيبويه: " واعلمْ أن المعرفة لا تُوصفُ إلا بمعرفةٍ، كما أن النكرة لا تُوصفُ إلا بنكرة." (سيبويه، عمرو ،١٩٨٣: ٣٠٢/٢)

قسَّم النحاة الضمير على ثلاثة أقسام: ضمير تكلم، وضمير خطاب، وضمير غيبة، ولأنَّ الضمير من الأشياء المبهمة؛ فإنَّه يحتاج إلى ما يفسره، ويرفع عنه هذا الإبهام، كما فى الأسماء الموصولة، إذ توجد جملة الصلة التى تزيل إبهام تلك الأسماء.

وليس هذا بجار على كل أقسام الضمير الثلاثة، فضمير المتكلم أو المخاطب، لا يحتاج إلى ما يوضحه أو يفسره؛ لأنَّ حضور صاحبه أو المشاهدة تؤدى ذلك، وأما ضمير الغائب، فخال من هذه المشاهدة؛ فاحتاج إلى هذه المفسِّر أو المرجع، يقول ابن يعيش: "والأحوال المقترنة بها، حضور المتكلم والمخاطب، والمشاهدة لهما، وتَقَدُّمُ ذكر الغائب الذى يصير بمنزلة الحاضر الشاهد "(ابن يعيش، موفق الدين، د.ت: ٨٤/٣). ويقول السيوطى: "ضمير التكلم والخطاب

Archive of SID

www.SID.ir

یفسرهما المشاهدة، وأما ضمیر الغائب، فعار عن المشاهدة؛ فاحتیج إلی ما یفسره " (السیوطی، جلال الدین ،۱۹۷۷: ۲۲۷/۱). وهذا المفسِّر ـ فی الأعم الأغلب ـ یکون اسماً ظاهراً مقدماً علی ضمیره، فنقول: (محمدٌ ضَرَبتُهُ)، وأن یکون الأقرب إلیه، نقول: (ضربتُ زَیداً وعمراً أوجعتُهُ)، فالهاء عائدة علی (عمراً) إلا إذا وجد دلیل علی أنَّ الضمیر عائد علی غیر الأقرب، " کما فی قوله تعالی: [وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَیَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِی ذُرِّیَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْکِتَابَ] (العنکبوت/۲۷)، فضمیر (ذریته) عائدٌ علی إبراهیم، وهو غیر الأقرب؛ لأَنَّهُ المُحَدَّثُ عنه من أول القصة إلی آخرها "[۱]. (م.ن).

وقد لا یُصرحُ بلفظ المرجع فی بعض الأحیان؛ لوجود ما یدلُ علیه حساً، کما قالَ تعالی: [یَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ] (القصص:۲٦)، والمقصود موسی علیه السلام، وإن لم یُصرح بلفظه، لکونه حاضراً، أو وُجدَ ما یدل علیه علماً، کما فی قوله تعالی: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ] (القدر:۱)، أی القرآن الکریم، أو یکون المفسِّرُ جزءاً من مدلول مرجعه، کما فی قوله تعالی: [اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَی] (المائدة:۸)، فالضمیر (هو) یعود علی العدل المفهوم من (اعدلوا)، والعدلُ جزءٌ من (اعدلوا)؛ لأن الأخیر یدلُ علی المصدر والزمان، فی حین یدلُ الأول علی المصدر فقط. ولا بُدَّ لهذا الضمیر من مطابقة مرجعه فی العدد وفی الجنس فإذا کان المرجع مفرداً مذکرا، وجب أن یکون الضمیر مفرداً مذکراً، وإذا کان المرجع مفرداً مؤنثاً، وجب أن یکونَ الضمیرُ مفرداً مؤنثاً، وإذا کان المرجعُ مثنیً، وجب أن یکون الضمیر مثنیً، وإذا کان المرجعُ جمعاً مذکراً، وجب أن یکون الضمیر جمعاً مذکراً، وإذا کان المرجعُ جمعاً مؤنثاً، وجب أن یکون الضمیر جمعاً مؤنثاً.

المطابقة بین الضمیر و مرجعه فی الإفراد

أولاً إذا کان الضمیر مفرداً مذکراً

فالأصلُ عند مجیء ضمیر غائب مفردٍ مذکر، أن یکون مطابقاً لمرجعه، وهذا ما جاء علیه القرآن الکریم، قال الله تعالی: [کُلَّمَا دَخَلَ عَلَیْهَا زَکَرِیَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ یَا مَرْیَمُ أَنَّی لَکِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ] (آل عمران: ۳۷)، فالضمیرُ (هو) عائدٌ علی (رزقاً)، وقد جاء مطابقاً لمرجعه فی العدد والجنس، فالضمیرُ مفردٌ مذکرٌ وکذا مرجعه. وقال تعالی: [إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْکُمْ وَجِلُونَ] (الحجر: ۵۲)، فالضمیر فی (علیه) عائدٌ علی (إبراهیم)، وذلک فی قوله تعالی: [وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَیْفِ إِبْرَاهِیمَ] (الحجر: ۵۱)، وقد تمت المطابقة هنا أیضاً وهذا التطابقُ جاء فی مواطن کثیرةٍ جداً فی القرآن الکریم .[۲]

Archive of SID

www.SID.ir

ما ظاهره عدم المطابقة

وردت بعض الآيات فى القرآن الكريم ظاهرها المخالفةُ بين الضمير ومرجعه فى الإفراد والتذكير، قال تعالى: [كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ* فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.] (البقرة:١٨٠ـ١٨١)

نجدُ الضمير فى (بَدَّلَهُ)، مفرداً مذكراً ، وقد عاد على (الوصية)، وهى مفردٌ مؤنث، وظاهر هذا التخالفُ. والقولُ فى هذه الآية من وجهين: الأول: إن (الوصية) فى الآية الكريمة بمعنى (الإيصاء)، وهذا لفظٌ مفردٌ مذكرٌ؛ ولذلک جاز عودُ الضمير عليه مفرداً مذكراً، وبهذا تتم المطابقة، قال الواحدىُّ: "[فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ]، أى بدل الإيصاء وغيره من وصى وولى وشاهد بعدما سمعه عن الميت." (الواحدى، على ،١٩٩٥: ١٤٩/١)

الثانى: إن الهاء عائدة على مفهوم من السياق يدلُ عليه الظاهر، وهو أمر الميت، فالله تعالى يقول: [كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ]، فالهاء عائدة على أمر الميت، قال الطبرىُّ: " فإن قال لنا قائلٌ: وعلامَ عادت الهاءُ فى قوله:[فَمَنْ بَدَّلَهُ]؟ قِيلَ على محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، وذلک هو أمر الميت وإيصاؤه إلى من أوصى إليه، بما أوصى به، لمن أوصى له" (الطبرى، محمد ،١٩٨٥: ١٢٢/٢) ولفظ (أمر الميت) مفردٌ مذكرٌ، وبه يتم التطابقُ بين الضمير ومرجعه إفراداً وتذكيراً.

وقد ذكر أبو حيان الأندلسى أن الضمير فى الآية راجعٌ على "أمر الله تعالى فى هذه الآية" (أبوحيان الأندلسى، محمد،١٩٩٢: ١٦٥/٢)، وهو مردودٌ بقول الطبرى رحمه الله، حيثُ يقولُ: "وإنما قلنا إن الهاء فى قوله:[فَمَنْ بَدَّلَهُ] عائدةٌ على محذوفٍ من الكلام يدل عليه الظاهر؛ لأنَّ قوله: [كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ]، من قوله تعالى، إن تبديل المُبَدِّل إنما يكون لوصية الموصى، فأما أمرُ الله بالوصية، فلا يقدرُ هو ولا غيره أن يُبدله." (الطبرى، محمد ،١٩٨٥: ١٢٢/٢)

والأول من الوجهين أولى؛ لأن الحملَ على المعنى جار فى لسان العرب، يقول أبو حيان الأندلسى:"والتذكير على المعنى واردٌ فى لسانهم." (أبو حيان الأندلسى، محمد،١٩٩٢: ١٦٥/٢)

وقال تعالى: [إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ] (آل عمران: ٤٥)، فقدَ عاد ضميرٌ مفردٌ مذكرٌ وهو الهاء من (اسمه) على (كلمة)، وهى لفظٌ مفردٌ مؤنثٌ والكلامُ هنا من وجوهٍ منها:

أولاً: إن (الكلمة) فى الآية بمعنى (الخبر)، قال الطبرىُّ: "وقوله:[بِكَلِمَةٍ مِنْهُ] يعنى برسالة من

Archive of SID

www.SID.ir

الله وخبر من عنده، وهو من قول القائل: (ألقى فُلانٌ إليَّ كلمةً سرنى بها)، بمعنى: (أخبرنى خبراً فَرِحتُ به)." (الطبرى، محمد ،۱۹۸۵ :۲٦۹/۳)

ثانياً: بما أن مُسَمَّى الكلمة ذَكَرٌ، وهو نبى الله عيسى؛ فقد ذَكَّرَ لهذا المعنى، قال الزمخشرىُّ: "فإن قلتَ: لِمَ ذكَّرَ ضمير الكلمة؟ قلتُ: لأن المُسَمَّى بها مذكرٌ. " (الزمخشرى، محمود ،۱۹۸٤: ۳۲۳/۱)

ثالثاً: إن عيسى خلقه الله تعالى بكلمة، أى أن عيسى أوجده الله تعالى بقوله [كُنْ]، فالمقصود بـ (الكلمة) الولدُ الذى وجوده فى الحياة الدنيا بقول الله تعالى: [كُنْ]، وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر فى عدد من الآيات الكريمة، قال الله تعالى: [قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (آل عمران: ٤٧)، وقال تعالى: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (آل عمران: ٥٩)، وقال جلَّ شأنُهُ: [ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (مريم:۳٤– ۳۵)، قال ابن كثير: "قال الله تعالى: [إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ]، أى بولدٍ يكون وجوده بكلمة من الله، أى بقوله كنْ فيكونُ" (ابن كثير الدمشقى، اسماعيل ،۱۹۸۱: ۳٦٤/۱). ويقول الزركشى: "و [إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ]، تجوّزٌ بالكلمة عن المسيح؛ لكونه تكوَّن بها من غير أب، بدليلِ قوله: [وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ]، ولا تتصف الكلمة بذلك. "(الزركشى، محمد،۱۹۷۱: ۹۷/۲) والرأى الأخير أَولى؛ لدعم القرآن الكريم له.

وقال تعالى: [وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَىْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً] (النساء: ٤)، فالضمير فى (منه) مفردٌ مذكرٌ، و مرجعه (صدقاتهن) جمعٌ مؤنثٌ. والقول فى هذه الآية من وجوه منها: أولا: إن (الصدقات) فى الآية بمعنى (الصداق)، وإذا عاد الضمير فى(منه) على هذا المعنى، تتم المطابقةُ بين الضمير ومرجعه ، قال الواحدىُّ :" [فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ] أى إن طابت لكم أنفسهن عن شىءٍ من الصداق، فكلوه هنيئاً فى الدنيا لا يقضى به عليكم سلطانٌ، مريئاً فى الآخرة لا يؤاخذكم الله به "(واحدى، على ،۱۹۹۵: ۲۵۲/۱) وقال الزمخشرىُّ: أو يرجع الضميرُ إلى ما هو فى معنى الصدقات، وهو الصداق"(الزمخشرى، محمود،۱۹۸٤: ۳۷٦/۱). ثانياً: إن الضمير فى الآية يجرى مجرى اسم الإشارة، " فكأنَّه قيل عن أى شىءٍ من ذلك، كما قال الله تعالى: [قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ] (آل عمران/۱۵)، بعد ذكر الشهوات، ومن الحجج المسموعة من أفواه العرب ما روىَ عن رؤبة أنه قيل له فى قوله: كَأَنَّهُ فِى الجِلدِ تَولِيعُ البَهَق. فقال: أردتُ كأن ذاك". (الزمخشرى، محمود،۱:۳۷٦/۱۹۸٤؛ أبو حيان الأندلسى، محمد،۱۹۹۲: ۵۱۱/۳ ـ ۵۱۲)

وقد ذكر أبو حيانٍ غير هذين الوجهين، فقد جاء فى البحر المحيط: "وقيل يعود على‌المال،

Archive of SID

www.SID.ir

وهو غير مذكور، ولكن يدل عليه صدقاتهن، وقيل يعود على الإيتاء، وهو المصدر الدال عليه(وآتوا)، قاله الراغبُ، وذكره ابنُ عطية." (أبو حيان الأندلسى، محمد،١٩٩٢: ٥١٢/٣)

والأول أولى؛ لأنه جرى فى كلام العرب الحملُ على المعنى فى التأنيث والتذكير. مما سبق نستطيع القول إن المطابقة بين الضمير المفرد المذكر ومرجعه، هى الغالبة فى القرآن الكريم، وما جاء فى ظاهره مخالفاً لهذه المطابقة، فإنه راجعٌ إلى الحمل على المعنى، كما مرَّ.

ثانياً إذا كان الضمير مفرداً مؤنثاً

فالواجبُ فى الضمير المفرد المؤنث المطابقةُ مع مرجعه إفراداً وتأنيثاً، وهذا هو الغالب فى القرآن الكريم، قال تعالى: [وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدا] (البقرة: ٥٨)، فالضمير فى (منها) عائدٌ على القرية، والمطابقة حاصلةٌ بين الضمير ومرجعه إفراداً وتأنيثاً.

وقال تعالى:[قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ] (يوسف: ٢٦)، فالضمائر: (هى)، والهاء من (أهلها) والمستتر فى (فصدقت) (هى)، راجعةٌ إلى امرأة العزيز ، وذلك فى قوله تعالى: [قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ] (يوسف: ٥١)، والمطابقةُ حاصلةٌ بين هذه الضمائر ومرجعها إفراداً وتأنيثاً .وغير ذلك كثيرٌ جداً فى القرآن الكريم.[٣]

ما ظاهره عدم المطابقة

وردت بعضُ المواطن فى القرآن الكريم ظاهرها المخالفة بين الضمير المفرد المؤنث ومرجعه، من ذلك قوله تعالى: [وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ] (البقرة: ٤٥) ، فقد تقدم على الضمير فى (وإنها) شيئان هما: (الصبر والصلاة)، وظاهر ذلك المخالفة.

والقول فى هذه الآية من وجوه منها :أولاً: إن الضمير عائدٌ على (الصلاة) وحدها، والصبر مندرجٌ تحتها، جاء فى جامع البيان: "[وَإِنَّهَا]، وإن الصلاة، فالهاء والألف فى (وإنها) عائدتان على الصلاة". (طبرى، محمد ،١٩٨٥: ٢٦١/١؛ القيسى، أبو محمد، ١٩٨٥: ٩٢/١)

ثانياً: إن الضمير يعود على المصدر وهو (الاستعانة)، المفهومة من قوله تعالى: [وَاسْتَعِينُوا]، يقول صاحب مشكل إعراب القرآن: "وقيل بل يعود على الاستعانة، ودلَّ على الاستعانة قوله: [وَاسْتَعِينُوا] "(القيسى، أبو محمد ،١٩٨٥: ٩٢/١) ويقول أبو حيان:"، "وقيل يعود على الاستعانة، وهو المصدر المفهوم من قوله: [وَاسْتَعِينُوا]، فيكون مثل: [اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى] (المائدة /٨)، أى العدل أقرب. (أبو حيان الأندلسى، محمد،١٩٩٢: ٢٩٩/١)

Archive of SID

www.SID.ir

ثالثهاً: إنَّ الضمیر عائدٌ علی الکعبة، یدل علی ذلک ذکرُ الصلاة، جاء فی زاد المسیر: "والثانی أنها للکعبة والقبلة؛ لأنه لما ذکر الصلاة دلت علی القبلة." (الجوزی، عبد الرحمن ،۱۹۸٤: ۷٦/۱)

وأرجح هذه الأقوال، أولُهُا؛ ذلک لأن الصلاة أعمُّ من الصبر، وظاهر الکلام یدل علیـــــها، " وهو القاعدة فی علم العربیة: أن ضمیر الغائب لا یعودُ علی غیر الأقرب إلا بـدلیل "(أبـو حیـان الأندلسی، محمد،۱۹۹۲: ۲۹۹/۱؛ زرکشـی، محمـد،۱۹۷۱: ۱۲۸/۳)، ویقـول الألوسـی: "[وَإِنَّهَـا لَکَبِیرَةٌ إِلَّا عَلَی الْخَاشِعِینَ]، الضمیر للصلاة کما یقتضیه الظاهرُ، وتخصیصها برد الضمیر إلیها؛ لعظم شأنها، واستجماعها ضروباً من الصبر ."(الألوسی، أبو الفضل، د.ت: ۲٤۹/۱)

وقال تعالی: [یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ وَیَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَالَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا یُنْفِقُونَهَا فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِیمٍ] (التوبة: ۳٤)، فقد ورد الضمیر مفرداً مؤنثاً فی (ولا ینفقونها)، وقد تقدمه شیئان هما: (الذهب والفضة). والقول فی هذه الآیة من وجوه منها:

أولاً: إنَّ الضمیر یعود علی (الکنوز) المفهوم من (یکنزونها)، یقول أبو جعفر النحاس: "یجـوز أن یکون المعنی ولا ینفقون الکنوز؛ لأن الکنوز تشتمل علی الذهب والفضـة هـا هنـا" (الفـراء، یحیی،۱۹۸۰: ۲۰۲/۳ ـ ۲۰۳)، و جاء فی البحر المحـیط و الکشـاف: " قولـه عـزَّ وجـلَّ: [وَلَا یُنْفِقُونَهَا فِی سَبِیلِ اللَّهِ] قیل لِمَ قال: (ولا ینفقونها)، ولمْ یقلْ (ینفقونهما)، وقد ذکر(الذهب والفضة) جمیعاً؟ قِیلَ: أَرادَ الکنوزوأعیان الذهب والفضة". (أبو حیان الأندلسـی، محمـد ،۱۹۹۲: ٤۱۲/٥، الزمخشری، محمود،۱۹۸٤: ۳۷/۲)

ثانیاً: إنَّ الضمیر یعود علی الفضة، والذهب داخلٌ فی حکمها، جاء فی مشکل إعراب القرآن: " وقیل تعود علی الفضة، وحذف ما یعود علـی الـذهب؛ لدلالـة الثـانی علیـه". (القیسـی، أبـو محمد،۱۹۸٥: ۳۲۸/۱)

ثالثاً: إنَّ الضمیر عائدٌ علی الذهب؛ لأن لفظه یُذکرُ ویؤنث، یقول العکبریُّ: " وقیل یعود علی الذهب، ویذکر ویؤنث" (العکبری، محب الدین، د.ت: ۱٤/۲)

والوجه الثانی أولی؛ وذلک لأن الفضة أقرب المذکورین (انظر: العکبری، محب الـدین، د.ت: ۱٤/۲؛ زرکشی، محمد،۱۹۷۱: ۱٤۳/۳) وهو أعمُّ وأغلبُ، فالذهب داخلٌ فی الفضـة، فهـی أکثـرُ تداولاً فی أیدی الناس (الزرکشی، محمد،۱۹۷۱: ۱۲۷/۳)

المطابقة بین الضمیر المثنی و مرجعه

فإذا ورد ضمیر غائب مثنی، وجب أن یعود علی مرجعٍ مثنیً مثله، وهذا ما ورد فی القرآن الکریم،

Archive of SID

www.SID.ir

قال تعالى: [فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ] (البقرة: ٣٦)، فالضميران (هما) من (فأزلهما)، ومن (فأخرجهما)، والألف من (كانا)، عائدان على نبى الله آدم وزوجه، قال تعالى: [وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ] (البقرة: ٣٥)، وقد تمت المطابقة بين الضمير المثنى ومرجعه.

وقال تعالى: [قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ] (هود: ٤٣)، فالضمير (هما) من (بينهما)، عائدٌ على نبى الله نوح وابنه فى قوله تعالى: [وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ] (هود: ٤٢)، وقد تمت المطابقة بين الضمير المثنى ومرجعه، وقد وردت مثل هذه المواطن فى القرآن الكريم.[٤]

ما ظاهره المخالفة

وردت بعض المواطن فى القرآن الكريم ظاهرها التخالف بين الضمير المثنى ومرجعه، قال تعالى: [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً* فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَباً] (الكهف:٦٠ ـ ٦١)، فقوله تعالى: (نسيا) عائدٌ على موسى وفتاه، ولا إشكال فى هذا، إلا أن الله تعالى يقول فى الآيتين التاليتين: [فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَباً] (الكهف:٢٦ ـ ٣٦)، فنحنُ نلاحظُ أن فتى موسى قد نسب النسيان لنفسه فقط وذلك فى قوله:[نَسِيتُ الْحُوتَ] و [مَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ]، وفى ظاهر هذا تخالفٌ بين الآيات فى نسبة النسيان، وفيما عاد عليه الضميرُ المثنى.

يقول الطبرىُّ: "قال بعضُ أهل العربية: إن الحوت كان مع يوشع، وهو الذى نسيه فأُضيف النسيان إليهما ... وإنما جاز عندى أن يُقال: نسيا؛ لأنهما كانا جميعاً تزوداه لسفرهما، فكان حملُ أحدهما ذلك مضافاً إلى أنه حَملٌ منهما، كما يُقالُ: خرج القومُ من موضع كذا، وحملوا معهما من الزاد كذا، وإنما حمله أحدهم، ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم، أُضيف إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله فى موضع، قيل: نسى القوم زادهم، فأُضيف ذلك إلى الجميع بنسيان حامله ذلك، فيجرى الكلام على الجميع، والفعلُ من واحدٍ، فكذلك ذلك فى قوله: [نَسِيَا حُوتَهُمَا]؛ لأن الله عزَّ ذِكرهُ خاطب العربَ بلغتها وما يتعارفونه بينهم من الكلام". (الطبرى، محمد ١٩٨٥، ١٥/٢٧٣)

وقال جماعةٌ من المفسرين: إنَّ الضمير عائد على نبى الله موسى وفتاه، يقول الزمخشرىُّ: "

Archive of SID

www.SID.ir

أی نسیا تفقد أمره وما یکون منه، مما جُعِلَ إمارةً علی الظفر بالطلبة، وقیل نسی یوشع أن یقدمه، ونسی موسی أن یأمره فیه بشیءٍ " (الزمخشری، محمود ،١٩٨٤: ٢٦٤/٢)، وهو ما رجحه أبو حیان، جاء فی البحر المحیط: "والظاهر نسبة النسیان إلی موسی وفتاه" (أبو حیان الأندلسی، محمد: ٢٠/٧)، وقد ذکر وجهاً آخر، وهو أن تکون الآیة علی حذف مضافٍ، والتقدیر "نسی أحدهما" (م.ن).

وقول الطبریَّ أولی؛ لأنه جار علی ما تکلمت به العربُ، والذی یؤیدُ نسبة النسیان لیوشع (فتی موسی) وحده، قوله تعالی: [فَإِنِّی نَسِیتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِیهُ إِلَّا الشَّیْطَانُ أَنْ أَذْکُرَهُ.] (الکهف: ٣٦)

وقال تعالی: [مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یَلْتَقِیَانِ* بَیْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا یَبْغِیَانِ* فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ*یَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ] (الرحمن: ١٩-٢٢)، فقد عاد ضمیرٌ مثنیً فی قوله: (منهما) علی (البحرین)، ولا مشکل، إلا أن اللؤلؤَ والمرجانَ یخرجان من الماء المالح دون العذب، وفی ظاهر هذا تخالفٌ، فقد عاد الضمیر المثنی علی مفرد.

والقول فی هذه الآیة من وجوه: أولاً: إنَّ هذا الترکیب مستعملٌ فی لسان العرب، یقول الزمخشریُّ: " فإن قُلتَ: لِمَ قال: (منهما)، وإنما یخرجان من الملح ؟ قُلتُ: لما التقیا وصارا کالشیءِ، جاز أن یُقال: یخرجان منهما، کما یُقالُ: یخرجان من البحر، ولا یخرجان من جمیع البحر، ولکن من بعضه، وتقولُ: خرجتُ من البلد، و إنما خرجتَ من محلة من مَحَالِهِ، بل من دارٍ واحدة من دُورِهِ " (الزمخشری، محمود، ١٩٨٤: ١٨٨/٣)، ویقول القرطبیُّ: "وقال (منهما) وإنما یخرجُ من الملح لا العذب؛ لأنَّ العربَ تجمعُ الجنسین، ثُمَّ تُخبرُ عن أحدهما، کقوله تعالی: [یَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ]، (الأنعام/١٣٠) وإنما الرسل من الإنس دون الجن، قاله الکلبیُّ وغیره. "(القرطبی، محمد،١٩٥٢: ١٦٣/١٧)

ثانیاً: إنَّ الآیة الکریمة تکون علی حذف مضاف، یقول القرطبیُّ: "وقال أبو علیٍّ الفارسیِّ: هذا من باب حذف المضاف، أی من أحدهما ، کقوله:[عَلَی رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ] (الزخرف/٣١)، أی من إحدی القریتین ".(القرطبی، محمد،١٩٥٢: ١٦٣/١٧)

ثالثاً: إن المقصود بـ (منهما)، ماءُ السماءِ والماءُ المالحِ، فإذا التقیا بسقوط المطر، خرج اللؤلؤ والمرجان، فعن ابن عباس: "هما بحرا السماء والأرض، فإذا وقع ماءُ السماء فی صدف البحر، انعقد لؤلؤاً، فصار خارجاً منهما"، (م.ن) وجاء فی البحر المحیط: "وقال ابن عباس وعکرمة:تکون هذه الأشیاء فی البحر بنزول المطر؛ لأن الصدف وغیرها تفتحُ أفواهها للمطر؛ فلذلک قال: منهما". (أبو حیان الأندلسی، محمد،١٩٩٢: ٦٠/١٠) والأول أولی لجریانه علی لسان العرب.

Archive of SID

www.SID.ir

المطابقة بين الضمير و مرجعه فى الجمع

أولاً: إذا كان الضمير جمعاً مذكراً

فإذا ورد الضمير الغائب و هو جمعٌ مذكرٌ، وجب أن يعود على مرجع مثله، وهذا ما جاء عليه القرآن الكريم، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ] (آل عمران: ١٠)، فـ (هم) من (أموالهم) ومن (أولادهم)، و(هم) ضمائرعائدة على (الذين كفروا)، والمطابقةُ حاصلةٌ بين الضمير ومرجعه جمعاً وتذكيراً.

وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا] (التوبة: ٢٨)، فـ (الواو) من (يقربوا)، و (هم) من (عامهم)، عائدان على (المشركين)، وقد تمت المطابقةُ بين الضمير ومرجعه جمعاً وتذكيراً، وغير ذلک كثير فى القرآن الكريم .[٥]

ما ظاهره عدم المطابقة

وردت بعضُ الآيات فى القرآن الكريم ظاهرها المخالفة بين ضمير الغائب الجمع المذكر ومرجعه، قال تعالى: [وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ* ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ] (الأنعام: ٦١ ـ ٦٢)، فالضمير فى (ردوا) جمعٌ مذكرٌ، وقد عاد على مفردٍ مذكرٍ، وهو قوله: (أحدكم) أو الهاء فى (توفتهُ).

والسببُ فى ذلک، أن (أحدكم) معناه الجمعُ، جاء فى بعض التفاسير: " قوله تعالى: [ثُمَّ رُدُّوا] عطفٌ على [تَوَفَّتْهُ] والضمير للكل المدلول عليه بـ [أَحَدَكُمُ] وهو السر فى مجيئه بطريق الالتفات تغليباً، والإفراد أولاً والجمعُ آخراً؛ لوقوعِ التوفى على الانفراد والرد على الاجتماع، أى ثُمَّ رُدوا بعد البعث بالحشر إلى الله" (انظر: أبو حيان الأندلسى، محمد ،١٩٩٢: ٥٤٠/٤، الألوسى، أبو الفضل، د.ت: ١٧٧/٧)، وقيل إن الضمير يعودُ على العباد، وهو ما رجحه أبو حيان الأندلسى (أبو حيان الأندلسى، محمد ،١٩٩٢: ٥٤٠/٤) أو على الرسل (الألوسى، أبو الفضل، د.ت: ١٧٧/٧).

وقال تعالى: [وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ] (الأنبياء: ٧٨) ، فقد عاد ضميرُ جمع المذكر (هم) على مثنىً (داود وسليمان) (عليهما السلامُ).

والقولُ فى هذه الآية من وجهين: الأول: إن الضمير راجعٌ إلى (داودَ وسليمانَ) (عليهما السلامُ)، والجمعِ الذين حُكم بينهم، قال الطبرىُّ: "[وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ] يقولُ وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنمُ أهلِ الغنمِ من حرثِ أهلِ الحرثِ" (الطبرى،

Archive of SID

www.SID.ir

محمد،۱۹۸۵: ۵۱/۱۷) وقال الزمخشریُّ: "وجمع الضمیر؛ لأنـَّهُ أرادهما والمُتَحَاكِمِينَ إليهما." (الزمخشری، محمود،۱۹۸۴: ۳۳۳/۲)

الثانی: إنَّ الضمیر لـ(داود وسلیمان) (علیهما السلامُ)، علی رأی من یقول إن أقل الجمع اثنان ، قال الفراءُ: " وهو مثلُ قوله: [فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ] یرید أخوین فما زاد، فهذا کقوله: [لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ] إذ جَمَعَ أثنین." (الفراء، یحیی،۱۹۸۰: ۲۰۸/۲)

والأول أولی؛ فالحکمُ یستلزمُ الحاکمَ، وقد ذکره الله تعالی وهما: (داود وسلیمان) (علیهما السلامُ)، ویستلزمُ أیضاً الخصومَ، وأقلهما اثنان، وبهذا لا مخالفة، ولو قصد بـ(داود وسلیمان) (علیهما السلامُ) الجمعَ، لقال: (إذ یحکمون) أیضاً، کما قال: [لِحُكْمِهِم]. وقد قرأ "ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وابنُ أبی عبلةَ " (الجوزی، عبد الرحمن،۱۹۸٤: ۳۷۱/۵) (لحکمهما) بضمیر التثنیة، وعلی هذه القراءة تتم المطابقةُ.

وقال تعالی: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً] (الأحزاب: ۳٦)، فقد أعاد الضمیر (هم) من (لهم) و (أمرهم)، وهو جمعٌ مذکرٌ، علی (مؤمن) و(مؤمنة)، وظاهر ذلک المخالفة.

والسبب فی ذلک؛ أن (مؤمن) و (مؤمنةٌ) وقعا فی سیاق النفی، والنکرة إذا وقعت فی سیاق النفی عَمَّتْ، فالآیة محمولة علی المعنی، أی أُرید بها کلُّ مؤمنٍ ومؤمنة، یقول الزمخشری: "فإن قلتَ کان من الضمیر أن یُوحد، کما تقول: ما جاءنی من رجلٍ ولا امرأةٍ إلا کان من شأنه کذا، قلتُ نعم، ولکنهما وقعا تحت النفی، فعمَّا کلَّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، فرُجع الضمیرُ علی المعنی لا علی اللفظ."(الزمخشری، محمود ،۱۹۸٤: ۵۳۹/۲)

ویقولُ أبو حیان: "ولما کان قوله [لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ] یعمُّ فی سیاق النفی؛ جاء الضمیرُ مجموعاً علی المعنیً فی قوله [لَهُمُ] مغلباً فیه المذکر علی المؤنث "(أبو حیان الأندلسی، محمد،۱۹۹۲: ۴۸۱/۸)، وعلی هذا لا مُخالفة.

وقال تعالی: [وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] (الحجرات:۹)، فقد قال عزَّ وجلَّ:[اقْتَتَلُوا]، وعاد الضمیرُ علی لفظٍ مثنیً [طَائِفَتَانِ]، ثم قال:[فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا]، مرتین بإرجاعِ ضمیر التثنیة إلی لفظ الـ [طَائِفَتَانِ]

والسببُ فی ذلک لأن لفظ (الطائفة) یشملُ عدداً من الناس، فکیفَ بالطائفتین؟، أی أن معنی الطائفتین جمعٌ؛ فلذلک أعاد ضمیرَ جمعٍ علیه، یقولُ الزمخشریُّ: "هو مما حُمل علی المعنی دون اللفظ؛ لأن الطائفتین فی معنی القومِ والناسِ." (الزمخشری، محمود، ۱۹۸٤: ۱۵۱/۳) وأما التثنیةُ فی

Archive of SID

www.SID.ir

[فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا]، فسببها النظرُ إلى اللفظ. ويعللُ الألوسيُّ مراعاةَ المعنى أولاً ثم اللفظَ، بقوله: "والنكتةُ فى ذلک، ما قِيلَ أنهما أولاً فى حال القتال مختلطون؛ فلذلک جمع أولاً ضميرهم، وفى حال الصلح متميزون متفارقون؛ فلذا ثنى الضمير" (الألوسى، أبو الفضل، د.ت: ١٥٠/٢٦) وبهذا لا مخالفةَ.

ثانياً: إذا كان الضميرُ جمعاً مؤنثاً

فإذا جاء ضميرُ غائب دالٌ على جمع تأنيثٍ، وجب أن يرجعَ إلى جمعٍ مؤنثٍ مثله، وهذا ما جاء عليه القرآنُ الكريمُ، قال تعالى: [وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (البقرة: ٢٢٨)، والمطابقةُ حاصلةٌ كما هو واضحٌ من الآية ، فالنون من (يتربصن، بأنفسهن، لهن، يكتمن، أرحامهن، كُنّ، بعولتهن، بردهن، ولهن، عليهن، عليهن)، عائدةٌ على المطلقات.

وقال تعالى: [يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ] (يوسف: ٤٦)، فالضمير (هن) فى (يأكلهن) عائدٌ على (بقراتٍ)، والمطابقةُ تامةٌ بين الضمير ومرجعه جمعاً وتأنيثاً.

وقال تعالى: [كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ] (الرحمن: ٥٨)، فالضمير (هن) فى (كأنهن) راجعٌ على (قاصرات الطرف)، فى قوله تعالى [فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ] (الرحمن: ٥٦)، والمطابقةُ تامةٌ بين الضمير ومرجعه جمعاً وتأنيثاً، وغير ذلک من الآيات.[٦]

ما ظاهره عدم المطابقة

وردت بعضُ المواطن فى القرآن الكريم ظاهرها المخالفةُ بين الجمع المؤنث ومرجعه، قال تعالى: [الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ] (البقرة: ١٩٧)، فقد عاد ضمير الجمع المؤنث من (فيهن) على (أشهر).

والسببُ فى ذلک، أن (أشهر) جمعُ قلة، وجمعُ القلة فيما لا يعقلُ يجرى كالجمع المؤنثِ، وجمعُ الكثرة عكسُهُ، يقولُ القرطبىُّ: "وقالَ: [فِيهِنَّ] ولم يقل: (فيها)، فقال قومٌ: هما سواءٌ فى الاستعمال، وقال المازنىُّ أبو عثمان: الجمعُ للكثير لما لا يعقل ، يأتى كالواحدة المؤنثة، والقليلُ ليس كذلک، تقولُ: (الأجذاعُ انكسرنَّ)و (الجذوعُ انكسرتْ)، ويؤيدُ ذلک قوله تعالى: [إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ]. (التوبة: ٣٦)، ثم قال: [مِنهَا]" القرطبى، محمد ،١٩٥٢: ٤٠٦/٢)

Archive of SID

www.SID.ir

وقال تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (فصلت: ۳۷)، فقد عاد ضميرُ الجمع المؤنث (هن) من (خلقهن)، على (الليل والنهار والشمس والقمر)

والسببُ في ذلک، كما في الآية المذكورة آنفاً، يقول الفراءُ: "[لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ] خلق الشمسَ والقمرَ والليلَ والنهارَ، وتأنيثهن في قوله: (خَلَقَهُنَّ)؛ لأنَ كلَّ ذكرٍ من غير الناس وشبههم، فهو في جمعه مؤنثٌ، تقولُ: (مرَّ بي أثوابٌ فابتَعتَهَنَّ) و (وكانت لي مساجد فهدمتهنَّ وبنيتهنَّ)، يُبنى على هذا" (الفراء، يحيى، ۱۹۸۰: ۱۸/۳)

وقال الزمخشريُّ: " [خَلَقَهُنَّ]، الليل والنهار، والشمس والقمر؛ لأنَّ حكمَ جماعةِ ما لا يعقلُ حكمُ الأُنثى أو الإناثِ، يُقالُ: (الأقلامُ بريتُها ، وبريتُهنَّ)" (الزمخشري، محمود،۱۹۸٤: ۷۲/۳)، وقد نقلَ أبو حيان كلامَ الزمخشريِّ معلقاً عليه بقوله: "وكان ينبغي أن يُفرقَ بين جمع القلة من ذلک، فإن الأفصحَ أن يكونَ كضمير الواحدة، تقولُ: (الأجذاعُ انكسرتْ) على الأفصح، و (الجذوعُ انكسرنَّ) على الأفصح، والذي تقدم في الآية ليس بجمعِ قلة، أعني بلفظٍ واحدٍ، ولكنه ذكرَ أربعةً متعاطفةً؛ فَنُزِّلتْ منزلةَ الجمعِ المعبر عنها بلفظٍ واحدٍ." (أبو حيان الأندلسي، محمد ،۱۹۹۲: ۳۰۷/۹)

وقد قيلَ إنَّ الضميرَ في [خَلَقَهُنَّ] عائدٌ على معنى الآياتِ في قوله: [وَمِنْ آيَاتِهِ]، يقول الزمخشريُّ: "أو لما قال: [وَمِنْ آيَاتِهِ] كُنَّ في معنى الآياتِ؛ فقيلَ: [خَلَقَهُنَّ]" (الزمخشري، محمود، ۱۹۸٤: ۷۲/۳)، وقيل إن الضمير يعود على (الشمس والقمر) فقط، على رأي من يقولُ إن أقل الجمعِ اثنان. (النحاس، أبو جعفر، ۱۹۸۹: ۲۷۱/٦؛ القرطبي، محمد ،۱۹۵۲: ۳٦٤/۱۵ ؛ أبو حيان الأندلسي، محمد،۱۹۹۲: ۳۰۷/۹)

نتيجة البحث

في هذا المقال اكتفيتُ بنصوصٍ وافيةٍ من القرآن الكريم؛ فالقرآن معجزة الله تعالى، لا يستطيعُ الباحث أن يحيط بكلِّ جوانبه وخصائصه وأسراره، وإننا لو تتبعنا أيَّ ظاهرةٍ فيه، فإنَّ دراستنا لا تتجاوز آياتٍ معدودة محدودة، ذلک لأنَّ هذا الكتابَ وحيٌّ من حكيمٍ عليمٍ ، لكلِّ حرفٍ فيه معنىً، ولكلِّ كلمةٍ فيه مغزىً، ولكلِّ آيةٍ فيه برهانٌ.

فإنَّ مظهر المطابقة لمْ يغفله النحاةُ، وإنْ لم يُفردوا له باباً خاصاً به، فنحنُ نجدهم يتكلمون عنها كلما كان ذكرها مناسباً، وذلک واضحٌ في كتبهم وما ذكرناه في هذه المقالة. والمطابقة في القرآن الكريم بين الضمير الغائب المفرد بنوعيه: المذكر والمؤنث، والمثنى، والجمع بنوعيه: المذكر

Archive of SID

www.SID.ir

والمؤنث، قد تمت فی مواطن تزيدُ كثيراً على المواطن التی ظاهرها التخالفُ، ولا ننسى أن لهـذه المواطن حملاً على المعنى و اختلاف المفسرين فيما تعود الى بعض الضمائر ليس اختلاف تباين و تضاد و إنما هو اختلاف تنوع و اجتهاد و توسعة فی المعنى.

الهامش

١. أنظر: سامرائی، معانی النحو، ٦٦/١ و جبر، الضمائر فی اللغة العربية ، ٩٦.
٢. أنظر: (آل عمران/٥٩)، (التوبة/٦١)، (طه/١١٥).
٣. أنظر: (طه/٢٠)، (الشعراء/٣٢)، (ص/٧٧)، (الدخان/٢٧)
٤. أنظر: (النساء/١)، (الأنبياء/١٦)، (القصص/٢٤).
٥ أنظر: (الحجر/٣٠)، (النحل/٣٥)، (الأحقاف/١٣).
٦ أنظر: (النور/٣١)، (الأحزاب/٤٩)، (الطلاق/١).

المصادر

ابن كثير الدمشقی، اسماعيل بن عمر (١٩٨١). *تفسير القرآن العظيم*، بيروت، دار الفكر.
ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت). *لسان العرب* ، بيروت، دار صادر، ط ١.
ابن يعيش، موفق الدين (د.ت). *شرح المفصل*، بيروت، عالم الكتب.
أبو حيان الأندلسی، محمد بن يوسف (١٩٩٢). *البحر المحيط فی التفسير*، طبعة جديدة بعناية صدقی محمد جميل، بيروت، دار الفكر.
الاسترآبادی، رضی الدين(د.ت). *شرح الرضی على الكافية*، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، طهران، مؤسسة الصادق.
الألوسی، أبو الفضل محمود (د.ت). *روح المعانی فی تفسير القرآن العظيم والسبع المثانی*، بيروت، دار إحياء التراث العربی.
جبر، محمد عبد الله (١٩٨٣). *الضمائر فی اللغة العربية*، بيروت، دار المعارف، ط ١.
الجوزی، عبد الرحمن (١٩٨٤).*زاد المسير فی علم التفسير* ، بيروت، المكتب الإسلامی، ط٣.
الزبيدی، محمد مرتضی(د.ت). *تاج العروس من جواهر القاموس*، بيروت، مكتبة الحياة.
الزركشی، محمد بن بهاد (١٩٧١). *البرهان فی علوم القرآن*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار المعرفة.
الزمخشری، محمود بن عمر (١٩٨٤). *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فی وجوه التنزيل*، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابی الحلبی.
السامرائی، فاضل صالح (١٩٨٧). *معانی النحو*، وزارة التعليم العالی والبحث العلمی، جامعة بغداد، بيت الحكمة.
سيبويه، عمرو بن عثمان (١٩٨٣). *الكتاب*، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، بيروت، عالم الكتب، ط ٣.
السيوطی، جلال الدين (١٩٧٧). *همع الهوامع فی شرح جمع الجوامع*، تحقيق عبد العال سالم مكرم، الكويت، دار البحوث العلمية.

Archive of SID
www.SID.ir

الطبری، محمد بن جریر (۱۹۸۵). *جامع البیان عن تأویل آی القرآن*، بیروت، دار الفکر.
العکبری، محب الدین عبد الله (د.ت). *التبیان فی إعراب القرآن*، تحقیق علی محمد البجاوی، دار إحیاء الکتب العربیة.
الفراء، یحیی بن زیاد (۱۹۸۰). *معانی القرآن*، تصدیر محمد أبو الفضل إبراهیم، بیروت، عالم الکتب، ط ۲.
القرطبی، محمد بن أحمد (۱۹۵۲). *الجامع لأحکام القرآن*، تحقیق أحمد عبد العلیم البردونی، القاهره، دار الشعب، ط۲.
القیسی، أبو محمد مکی (۱۹۸۵). *مشکل إعراب القرآن*، تحقیق حاتم صالح الضامن ،بیروت، مؤسسة الرسالة، ط ۲.
النحاس، أبو جعفر (۱۹۸۹). *معانی القرآن الکریم*، تحقیق محمد علی الصابونی ،مکة المکرمة، جامعة أم القری، ط ۱.
الواحدی، علی بن أحمد (۱۹۹۵). *الوجیز فی تفسیر الکتاب العزیز*، تحقیق صفوان عدنان داوودی، دمشق ـ بیروت، دار القلم ـ الدار الشامیة، ط ۱.

Archive of SID

www.SID.ir